حسن البديع فى القرآن الكريم

د . أبوبكر العربي المجدوب
كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد .

فالقرآن الكريم حبل الله المتين ، ونوره المبين ، ومعجزته الخالدة إلى يوم الدين ، لا يعوجُّ فيقوم ولا تنقضي عجائبه .

وهو أساس سمو العربية ومنهل العلوم المقدسة ، وقد رغبنا أن يكون بحثنا نابعاً من بحر القرآن الكريم ، على أن نبحث عن حسن البديع في أسرار بعض الأساليب البلاغية في القرآن الكريم

أولا – سندرس تعريف المطابقة في اللغة والاصطلاح وأنواعها ، وكذلك توظيفها من خلال الآيات القرآنية الكريمة ، وأيضاً المقابلة من حيث التعريف بالأنواع والفرق بين المطابقة والمقابلة من حيث التعريف والأنواع والتوظيف،

ثانيا ـ سنتناول تعريف الالتفات لغة واصطلاحاً ، وأقسامه مع توظيف ذلك في القرآن الكريم ،

ثالثا – نتطرق إلى " أسلوب الحكيم " وتوظيفه من خلال القرآن الكريم ثم تم تذييل ذلك بالخاتمة ونتائج البحث .

حســـــن البديـــــــع

أولا ـ توظيف المطابقة والمقابلة في القرآن الكريم
ثانيا ـ توظيف أسلوب الالتفات في القرآن الكريم
ثالثا ـ توظيف أسلوب الحكيم في القرآن الكريم

أولا- توظيف المطابقة والمقابلة في القرآن الكريم

1- المطابقة :

تعريف المطابقة في اللغة :

الطبق : غطاء كل شيء ، ج أطباق ، وطبُقه تطبيقاً فانطبق ، وأطبقه فتطبَّق ،والطبق من كل شيء : ما ساواه وقد طابقه مطابقة وطباقاً ، والطبق : الحال ومنه لتركبن طبقاً عن طبق ، والسماوات طباق ، والتطبيق : تقريب الفرس في العدو، أو أن يضع البعير رجله موضع يده ، مادة (ط ، ب ، ق) (1) .

تعريف المطابقة في الاصطلاح :

هي الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده في الكلام

أو هي اجتماع المعنيين المختلفين في نقطة واحدة مكررة (2) .

أنواع المطابقة :

والمطابقة ثلاثة أنواع :

1- مطابقة الإيجاب :

هي ما صرح فيها بإظهار الضدين ، أو هي ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً ومن أمثلتها : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (3)

2- مطابقة السلب : وهي ما لم يصرح فيها بإظهار الضدين ، أو هي ما اختلف فيها الضدان إيجاباً وسلباً ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (4) .

3- مطابقة إيهام التضاد :

وهو أن يوهم لفظ الضد أنه ضد مع أنه ليس بضد .

مثال : قال تعالى : {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ } (5) .

فالمطابقة هنا هي في الجمع بين " أشداء ورحماء " فلفظة رحماء ليست ضدا في المعنى للفظة " أشداء " ولكن الرحمة تستلزم اللين المقابل للشدة ، لأن من رحم قلبه لان ورق ، ومن هذه الناحية الخفية صحت المطابقة .

ظهور التضاد وخفاؤه :

والتضاد بين المعنيين قد يكون ظاهراً كما في الأمثلة السابقة ، وقد يكون خفياً كقوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ (6) ، فإدخال النار ليس ضد الإغراق في المعنى ، ولكنه يستلزم ما يقابله وهو الإحراق فإن من دخل النار احترق ، والاحتراق ضد الغرق .

بلاغة المطابقة :

وبلاغة المطابقة لا يكفي فيها الإتيان بمجرد لفظين متضادين أو متقابلين في المعنى قال تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (7) .

ففي العطف بقوله تعالى : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الله ، فهنا اجتمعت المطابقة الحقيقية ومبالغة التكميل .

2- المقابلة

تعريف المقابلة في اللغة :

ويقال لها أيضاً التطبيق والطباق والتضاد ، قَبلُ : نقيض بعد .

والقُبلُ : نقيض الدُبرِ ، والتقابل : التضاد ، مادة (ق ، ب ، ل) (8) .

تعريف المقابلة في الاصطلاح :

هي : إذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة ،

هي إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على وجه الموافقة أو المخالفة (9) .

أنواع المقابلة :

1- مقابلة اثنين باثنين .

2- مقابلة ثلاثة بثلاثة .

3- مقابلة أربعة بأربعة .

وقد ترد المقابلة في غير القرآن الكريم بأكثر من ذلك

الفرق بين المطابقة والمقابلة :

والفرق بين المطابقة والمقابلة يأتي من وجهين : أحدهما أن المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين الضدين ، أما المقابلة فتكون غالباً بالجمع بين أكثر من ذلك .

والثاني : أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد ، على حين تكون المقابلة بالأضداد وغير الأضداد ، ولكنها بالأضداد تكون أعلى رتبة وأعظم موقعاً ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ (10) ، فانظر إلى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام وهما ضدان ، ثم قابلهما بضدين : هما السكون والحركة على الترتيب .

النماذج :

1- قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ (11) ، فالمكر من الله تعالى العذاب ، جعله الله عز وجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته (12) .

2- قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ (13) . لقد طابق الله تعالى بين الليل والنهار ثم طابق بين السكون والحركة ، ثم طابق بين السكون والحركة في قوله : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، وبجمع المطابقتين تتحول المطابقة إلى مقابلة فهو جمع بين ضد الضدين .

3- قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء ﴾ (14) .

لقد طابق الله سبحانه وتعالى بين لفظتي " تؤتى وتنزع " فهما ضدان ثم طابق الله بين قوله " تعز " وقوله " تذل " ، فالعزة ضد الذلة وبذلك اجتمع أكثر من ضدين في هذه الآية فكان السياق مقابلة .

ثانيا- توظيف أسلوب الالتفات في القرآن الكريم

تعريف الالتفات لغة :

لفته يلفتهُ : لواه وصرفه عن رأيه ، ومنه الالتفات ، واللفوت امرأة لها زوج وولد من غيره (ل- ف- ت) (15) .

وفي الاصطلاح :

هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ،ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر (16)

والالتفات من محاسن الكلام وبديعه ، ويسمى : ((شجاعة العربية)) لأن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات (17) .

ومعضم النقاد والبلاغيين يرون أن الالتفات يأتي لدفع السآمة من الاستمرار على ضمير المتكلم ، أو ضمير المخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة ومن المتكلم إلى الخطاب أو الغيبة ، فيحسن الانتقال من بعضها إلى بعض ، لأن الكلام المتوالي على ضمير واحد لا يستطاب . (18)

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (19).

فالالتفات في الآية الكريمة هو في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وعن هذا الالتفات يقول ابن الأثير : " فإنه إنما صرف الكلام ها هنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الإنكار عليهم ولو أنه قال حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة (20).

أقسام الالتفات :

1- القسم الأول : في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة .

2- القسم الثاني : في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر .

3- القسم الثالث : في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل ، وعن المستقبل بالفعل الماضي .

النماذج :

القسم الأول : أ – في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب :

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ (21) وإنما قيل ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾ وهو خطاب للحاضر بعد قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾ وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة ، وهي زيادة التسجيل على قائلي هذا القول بالجرأة على الله ، والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه ، فكأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم وموبخاً لهم .

ب – ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الخطاب إلى الغيبة ، قوله تعالى : (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلاَّ هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) . (22)

فقد قال : (إني رسول الله) ، ثم قال : (فآمنوا بالله ورسوله) ولم يقل : (فآمنوا بالله وبي) عطفا على قوله : (إني رسول الله إليكم جميعا) لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه ، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وبكلماته كائنا من كان أنا أو غيري ، إظهارا للإنصاف وبعداً عن التعصب . فقرر أولا في صدر الآية إني رسول الله إلى الناس ، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين : أولا منها إجراء تلك الصفات عليه ، والثاني الخروج من تهمة التعصب .

القسم الثاني : أ – في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر :

وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (23) .

فإنه إنما قال : ﴿ أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ ﴾ ولم يقل ﴿ وأشهدكم ﴾ ليكون موازناً له وبمعناه ، لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلاّ تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ولذلك عدل به عن لفظ الأول – المستقبل – لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر (واشهدو).

ب – ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر قوله تعالى : (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون) (24)

قال : (أمر) ثم قال : (وأقيموا) ، وكان تقدير الكلام : أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك بالالتفات إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب ، إذ عمل الجوارح لا يصح إلاً باخلاص النية .

القسم الثالث : أ – الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل :

قوله تعالى : {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ }(25) .

وإنما قال : ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ مستقبلاً وما قبله وما بعده ماض ، وذلك حكاية للحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب ، واستحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة .

ب – ومن أمثلة الالتفات بالإخبار عن المستقبل بالماضي قوله تعالى : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (26) .

وإنما قال (وحشرناهم) ماضيا بعد (نسير وترى) وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال ، كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم ، لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي .

فالعدول بالالتفات عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة لا يكون ، كما رأينا ، إلاً لنوع من الخصوصية اقتضت ذلك وهذا أمر لا يتوخاه في كلامه إلا المتمرس بفن القول والعارف بأسرار الفصاحة والبلاغة .

ثالثا- توظيف أسلوب الحكيم في القرآن الكريم

((أسلوب الحكيم من خلال القرآن الكريم))

يقصد بأسلوب الحكيم: تلقي المخاطب بغير ما يترقبه ، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله ، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد ، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى، فقد يسأل سائل عن أمر من الأمور فتجد فى نفسك ميلاً من الإعراض عن إجابته لسبب ما قد يكون عجز السائل عن فهم الجواب على الوجه الصحيح ، أو عدم الرغبة فى الخوض فى موضوع لا يعنيك ، أو قد يؤدي إلى ما لا يرضي مخاطبك ، أو ما أشبه ذلك ، ففى هذه الأحوال تصرفه بلطف ولباقة عن هذا الموضوع بالإجابة عن شيء لم يسأله أو لا يريده (27). وهذا الأخير ما سنتناوله هنا .

ولعل الجاحظ أول من فطن إلى هذا النوع من البديع المعنوي فقد عقد له بابا خاصا في كتاب البيان والتبيين ، وأطلق عليه اسم ((اللغز في الجواب)) (28) .

قال تعالى : ((يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج)) (29)

ففى هذه الآية سأل أصحاب الرسول (ص) عن الأهلة لِمَ تبدو صغيرة ثم تزداد حتى يتكامل نورها ، ثم تتضاءل حتى لا ترى ؟ ، وهذه مسألة دقيقة من مسائل علم الفلك تحتاج إلى فلسفة عالية ، وثقافة عامة ، فصرفهم عنها بالآية الكريمة ، ليبين لهم أن الأهلة وسائل للتوقيت فى المعاملات والعبادات ، وإشارة منه إلى أن الأولى لهم أن يسألوه عن فائدة الأهلة لا حقيقتها .

وقال تعالى : ((ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل)) (30)

فالمسلمون قد سألوا الرسول (ص) ، ماذا ننفق من أموالنا ؟

فأجاب بلسان القرآن ببيان المصرف ، لأن النفقة لا يعتد بها إن لم تقع موقعها

وهذا ما يسميه علماء البلاغة : الرد على كلام السائل من فحوى لفظه (31).

الخاتمة ونتائج البحث :

1- إن المطابقة هي اجتماع المعنيين المختلفين في نقطة واحدة مكررة وللمطابقة ثلاثة أنواع مطابقة الإيجاب – مطابقة السلب – مطابقة الإيهام والتضاد .

2- فعلى عكس المطابقة المقابلة هي : إبراء الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على وجه الموافقة أو المخالفة ، فإن للمقابلة أنواعاً هي : مقابلة اثنين باثنين – مقابلة ثلاثة بثلاثة ، مقابلة أربعة بأربعة ، وهكذا .

اتضح لنا أن الفرق بين المطابقة والمقابلة يأتي على وجهين أحدهما أن المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين ، أما المقابلة فتكون غالباً بالجمع بين أكثر من ذلك .

3- ونستنتج من (أسلوب الاتفات) أن الكلام المتوالي على ضمير واحد لا يستطاب

4- أسلوب الحكيم : اتضح من دراسة هذا الأسلوب أنه يعني الرد على كلام السائل من فحوى لفظه .

الهوامش :

ملاحظة :

تم اعتماد رواية قالون عن نافع .

1 - لسان العرب – ابن منظور- ط 3 – ت : عبد الله الكبير مادة (ط – ب – ق) .

2 - ينظر – في البلاغة العربية -علم البديع ، عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية- بيروت - ص67 .

3 - سورة الفرقان ، الآية (70) .

4- سورة الزمر ، الآية (10) .

5- سورة الفتح ، الآية (29) .

6- سورة نوح ، الآية (26) .

7- سورة آل عمران ، الآية (27) .

8- لسان العرب – مرجع سابق – مادة : (ق – ب – ل).

9- ينظر- علم البديع – د . عبد العزيز عتيق – مرجع سابق – ص 75 .

10- سورة القصص، الآية (73) .

11- سورة النمل ، الآية (52) .

12- كتاب الصناعتين - للعسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط 1986 – ص 337 .

13- سورة القصص ، الآية (73) .

14- سورة آل عمران ، الآية (26) .

15- لسان العرب ، مرجع سابق ، مادة (ل - ف – ت) .

16- ينظر - علم البديع – عتيق – مرجع سابق – ص 135 .

17- ينظر – المثل السائر – ابن الأثير – ت : محمد أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة – مطبعة حجازي – القاهرة – ص 167 .

18- ينظر - في البلاغة / د. عبد القادر حسين / جامعة القاهرة – دهر غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – 1973 ص 174.

19- سورة يونس ، الآية (22) .

20- ينظر- المثل السائر – مرجع سابق – ص .167

21- سورة مريم ، الآية (89 - 90) .

22- سورة الأعراف ، الآية (158)

23- سورة هود ، الآية (54) .

24- سورة الأعراف ، الآية (28)

25- سورة فاطر ، الآية (9) .

26- سورة الكهف ، الآية (46)

27- ينظر – البلاغة العربية الواضحة – راجي الأسمر _ إشراف : د . إميل يعقوب – المكتبة الثقافية – بيروت – ط – 1 – 1998 – ص 186 .

28- ينظر – البيان والتبيين – الجاحظ – ج 2 – ت : عبد السلام هارون ط – 3 – مكتبة الخانجي – القاهرة – ص 148 – 282 .

29- سورة البقرة ، الآية (189) .

30- سورة البقرة ، الآية (213) .

31- ينظر –علم البديع – د . عبد العزيز عتيق –دار الآفاق العربية – القاهرة ط -1 - 1998- ص 141